المختار

أحب الدكتور طه حسين بك في تقديمه الجزء الثاني من كتاب « المختار » ان يجعل بين الشيخ عبد العزيز البشري وبين صاحب الأغاني نسباً في اللغة ، اما انا فاني أحب ان أذهب مذهباً أبعد ، اني أحب ان أجعل هذا النسب بين صاحب « المختار » وبين الجاحظ نفسه ، فالشيخ عبد العزيز البشري قد انسحب على أذيال الجاحظ في بعض فنه ، فان له تصرفاً في مفردات اللغة غير يسير ، ولقد زاد في محاسن تصرفه صفاء ذوقه ، واذا شئت ان أجمل الرأي في فن الشيخ عبد العزيز البشري فلا أجد عبارة أصح من عبارته في الشيخ سيد درويش ، فهو يقول فيه : وللرجل أذن موسيقية ، وله حس مرهف ، وفيه ذوق تام دقيق .

ولئن صدقت هذه الصفات في الشيخ سيد درويش فانها في الشيخ عبد العزيز البشري أصدق ، ولعل هذه الأذن الموسيقية هي التي مكنت صاحب « المختار » من إرسال ما أرسله من الكلام في فريق من رجال الموسيقى ، الذين حضر مجالسهم ، حتى استطاع ان يذوق محاسنهم ، وان ينبه على مقابحهم ، وان يذهب في الاشارة الى ترديدهم وترنيمهم ، والى ترجيعهم وتنغيمهم هذا المذهب الذي ذهبه ، وما أظن ان قلماً من الأقلام في هذا العصر يستطيع أن يجري في وصف رقيق الاصوات وأجشها ، أو في وصف فنون النغم بمجامعها مجرى قلم الشيخ عبد العزيز البشري .

ولا ريب في أن هذه الأذن الموسيقية التي خلقها الله لشيخنا البشري هي التي أعانته على تهذيب ذوقه اللغوي ، واذا جعلت بينه وبين الجاحظ نسباً في اللغة فاني لا أرمي الكلام على عواهنه فان له مقاطع في كلامه على الشيخ علي يوسف او على الشيخ سيد درويش ، او في مواطن غير هذه المواطن ، تظهر عليها آثار بلاغة الجاحظ .

واذا كان الشيخ عبد العزيز البشري نسيج وحده في شيء ، فانه نسيج وحده في تصوير الرجال ، فقد أعطاه الله كثيراً من خصائص التصوير ، فلا يكاد يتعاظمه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شيٌ من الكلام على هيآت المصورين ، وعلى عقولهم وعلى قلوبهم ، وله في هذا الباب لهجة خاصة تباغت القارئ فتسليه وتسره ، وهذه اللهجة انما هي سرّ الصنعة في التصوير فلا يكاد يتفلت منه لفظ في هذا المجال ، ولو انصرف الشيخ عبد العزيز البشري ، وقد اختصه الله بما اختصه به من دقة البيان وطبعه على مثل ماطبعه عليه من التهكم ، الى مراقبة أخلاق أهل عصره ، على نحو مافعله الكاتب الفرنسي « لابرويير » : في القرن السابع عشر ، ودوّن نتائج هذه المراقبة في كتاب منفرد ، غير كتابه : في المرآة ، من دون أن يشتت رأيه في طائفة من الرجال لما ذهب أثر كتابه سجيس الليالي !

ولقد حملته مقدرته في بيانه على التجوز في بعض الأحيان في أمر من أمور النحو أو اللغة وهذا شأن كثير من أكابر الكتاب ، فانهم يتجوزون في طائفة من مواضع بيانهم في مذاهب النحو واللغة اعتقاداً منهم ان هذا التجوز تغطي عليه حسناتهم .

فهل يضر شيخنا الجليل ان يقول في بعض كلامه : قد لا يكون ... وهو يعلم العلم كله ان « قد » هذه متصلة بالفعل المتصرف ، الخبري ، المثبت ، المجرد من ناصب وجازم وحرف تنفيس ، لا يفصل بينها وبينه فاصل ، اللهم الا القسم .

وهل يضر شيخنا الجليل ان يدخل : مهما ، على الفعل الماضي ، فيقول : مهما كان ، ومهما استحدث ... وهو يعلم العلم كله ان « مهما » من الجوازم ، ويحيط الاحاطة كلها بمعانيها الثلاثة : مهما تأتنا به من آية ... على ان البحتري أغضى قديماً على دخول « مهما » الفعل الماضي ، ولم يذهب هذا الإغضاء بسحر شعره !

أم هل يضره ان يأتي بالتوكيد المعنوي قبل المؤكد ، فيقول في بعض كلامه : في نفس اليوم ، بدلاً من ان يقول : في اليوم نفسه ، وهو يعلم العلم كله ان التوكيد المعنوي يأتي بعد المؤكد !

ام هل يضره ان يستعمل فعلاً يتعدّى بالحرف ، فيستغني عن هذا الحرف ، فيقول : ثم نقبل على صيغه ، تفتشها وتفرّها ، وهو يعلم انه يقال : فرّ الدابة ، كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وفرّ عن الأمر ، بحث عنه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان هذا كله لا يذهب بحسنات الشيخ عبد العزيز البشري ، فله أن يجمع صديقاً على صدقان اذا شاء ، وله أن يستغني عن جمعها على أصدقاء وصدقاء ، وله أن يقول : مضعوف البدن من أضعفه الله ويعدل عن : ضعيف البدن ، ان هذا كله صحيح ، وكله فصيح ، غير ان تباعد الشيخ الجليل عن أشباه هذا المألوف من الجمع ، وإسرافه في تنخله بعض ألفاظه ، مثل قوله : زلت له هذه الخلة ، بدلاً من قوله : جاءته ، يقحمانه في الذي نسميه التنطع في الكلام وقد نزهه الله عن كل تنطع وتنطس .

على اني ارجو ان اكون قد أخطأت في هذه النظرات العجلة ، فان الشيخ عبد العزيز البشري يغرف في البلاغة من بحر لا تكدره امثال هذه المكدرات .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net